كلمة فضيلة الشيخ الدكتور

يـوسف عبـد الله الـقـرضـاوي

الفائز (بالاشتراك) بجائزة الملك فيصل العالمية

للدراسات الإسلامية لعام 1414هـ / 1994م

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على هادي الناس إلى الحق، ومعلم الناس الخير، محمد عبد الله ورسوله، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز
النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء
ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام
أصحاب السمو الأمراء
أصحاب الفضيلة والمعالي السعادة

خير ما أحييكم به تحية الإسلام، وتحية الإسلام السلام، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد:

فهذا مقام الحمد والشكر لله جل ثناؤه، وتباركت أسماؤه، الذي وظفنا في خدمة دينه، وجعل عملنا الذود عن شريعته، وتبليغ رسالته، ونصرة دعوته. ثم أثابنا على ذلك في الدنيا قبل الآخرة تقديرا وتكريما، فكنا أشبه بأم موسى التي ترضع ولدها وتأخذ عليه أجرا.

فالحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، كما يحب ربنا ويرضى.

"رب أوزعني أن أشكر نعمتك علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين".

وقد علّمنا رسولنا الكريم أن شكر الله تعالى لا يتم إلا بشكر عباده، فقد روى أبو هريرة وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:- "لا يشكر الله من لا يشكر الناس".

وإني لأشكر الذين رشحوني، والذين اختاروني، والذين أنشأوا هذه الجائزة التي أعتبر مضمونها الأدبي والمعنوي أهم وأعلى بكثير من مضمونها المادي.

ولا غرو أن تصدر هذه الجائزة من بلد حوى أول بيت وضع للناس –بيت الله الحرام- الذي جعله مثابة للناس وأمنا، وإليه تتجه وجوه المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كل يوم خمس مرات، ويفدون إليه كل عام حاجّين، وكل حين معتمرين.

وهو البلد الذي ضم مسجد رسول الله ومثواه صلى الله عليه وسلم، ففاز بالشرفين، في خدمة الحرمين.
وهو البلد الفذ الذي تُنكس أعلام الدنيا كلها ولا يُنكس علمه، لأنه يحمل أصدق كلمة في الوجود: "كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله".

وقد ضم إلى هذه الأمجاد مجدا آخر، بهذه الجائزة العالمية التي ارتبطت باسم رجل عزيز على كل مسلم، أحبه المسلمون حياً، وترحّموا عليه ميتا، ذلكم هو الملك فيصل رحمه الله، الذي كان رمزا للتضامن الإسلامي، والدعوة إلى تحرير المسجد الأقصى، والصمود في وجه العدوان الصهيوني.

والحق أني لا أعتبر هذه الجائزة مجرد تكريم شخصي، بل هي في الواقع تكريم لاتجاه، وتقدير لتيار، أؤمن به وأدعو إليه، وهو اتجاه الوسطية الإسلامية، الذي يجمع بين السلفية والتجديد، ويوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر.. يشدد في الأصول.. وييسر في الفروع.. ينهل من الماضي، ولا يهمل الحاضر، ولا يغفل عن المستقبل.

اتجاه يرى أن الاجتهاد فريضة وضرورة، فريضة يوجهها الشرع، وضرورة يحترمها الواقع ويحترم نتائج الاجتهاد، وإن خالفت رأيه، مادام صادرا من أهله في محله، ويتبنى ما قاله أمير

المؤمنين في الحديث، وإمام الفقه والورع سفيان بن سعيد الثوري، إنما الفقه الرخصة من ثقة. أما التشديد فيحسبه كل أحد، كما يتبنى قاعدة المنار الذهبية "نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه".

وإن أعظم نعم الله علينا هي نعمة الإسلام الذي كرمنا الله به وارتضاه لنا شرعا ومنهاجا "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا".

وإذا كان القرآن آخر كتب الله، ومحمد خاتم رسل الله، فإن شريعته هي خاتمة الشرائع الإلهية، لهذا أودعها الله الصلاحية لكل زمان ومكان، فهي شريعة عالمية خالدة.

وإني لموقن يقيناً لا ريب فيه: أن الفقه الإسلامي المعبِّر عن هذه الشريعة –بمصادره الغنية، وأصوله المحكمة، وقواعده الضابطة، ومدارسه الاجتهادية، وثرواته الفكرية – لجدير أن يمد الأمة بكل ما تحتاج إليه من فتاوى وأقضية وتشريعات، تحقق المصلحة، وتدرأ المفسدة، وتلائم الفطرة، وتقيم الموازين القسط بين الناس.

كل ما تفتقر إليه ليحيا هذا الفقه وينمو ويزدهر: أمران:

الأول: اجتهاد معاصر قويم، ينظر إلى الإسلام وأصوله بعين، وينظر إلى العصر بعين أخرى، سواء كان اجتهادا ترجيحياً يختار من أقوال الفقهاء – على تعدد مشاربهم ومذاهبهم منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم – ما كان أقوم قيلا، وأرجح دليلا، وأقرب إلى تحقيق أهداف الشرع ومصالح الخلق، وأرعى لقاعدة تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والعرف والحال.

أم كانت اجتهادا إنشائيا، يفني في القضايا الجديدة وما أكثرها في ضوء النصوص والمقاصد الشرعية، دون تعصب لرأي قديم، ولا عبودية لفكر جديد، مغلبين سمعة النصوص على ضيق الأقوال وتيسير السلف على تشديد الخلف، وفقه مدرسة المقاصد على حرفية مدرسة الظواهر، وتحرر المتقدمين على تعصب المتأخرين وشجاعة أهل التجديد على تحرج أهل التقليد. مؤكدين ما قاله الإمام ابن القيم:

"إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن دخلت فيها بالتأويل".

الثاني: أن يدخل الفقه ميدان التطبيق، ولا يظل حبيس الكتب، فإن أعظم ما يحيي الفقه العمل به، ووضعه موضع التنفيذ في الفتوى والقضاء والتشريع، وبهذا يمتزج الفقه بالحياة، وتمتزج به الحياة، كما ظل كذلك طوال ثلاثة عشر قرنا لم تعرف الأمة لها فيها مرجعا قانونيا ولا قضائيا، غير الشريعة وفقهها، وإن جار من جار في التطبيق.

وأخطر ما أصاب الفقه في هذا العصر: عزله عن التقنين والحكم في مجالات الحياة المختلفة، فيما عدا مجال الأسرة والأحوال الشخصية، وإن كان بعض البلاد فرط فيها هي الأخرى.

وكان أهم ما وضعه الاستعمار عند احتلاله للديار الإسلامية هو: أبعاد الشريعة وفقهها عن توجيه الحياة بأحكام الله، ولم يكد يسلم من ذلك بلد في العالم الإسلامي كله إلا هذا البلد الذي نجّاه الله من الاستعمار، ونجّاه بالتالي من الدخول في قفص القوانين الوضعية المستوردة.

بهذين الأمرين تعود للفقه حيويته وخصوبته وازدهاره، ويغدو قادراً على مواجهة التطور وتوجيهه، في إطار المشروع الحضاري الإسلامي الذي هو حلم أمتنا الكبرى.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفق أمتنا للعمل بشريعته، وأن يجمع كلمتها على الهدى، وقلوبها على التقوى. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.